جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2.
كلية الحقوق والعلوم السياسية -قسم العلوم السياسية.
مقرر الحضارة العربية الإسلامية للسنة الأولى.
د. عيساوة آمنة.

المحاضرة السادسة: التنظيم القضائي في الحضارة العربية الإسلامية.

مقدمة: القضاء في اللغة هو الحكم والالتزام، وفي الاصطلاح الفصل في الخصومات. وقد شهد صدر الإسلام تطورا للقضاء أين أصبحت تبعية الجريمة تقع على صاحبها امتثالا لقوله تعالى:" ولا تزر وازرة وزر أخرى"، عكس ما كان في الجاهلية عند العرب أين كانت العقوبة تتعداه إلى قبيلة المجني عليه. وفي بدايات الدولة الإسلامية الأولى تولى سيدنا محمد صلى الله عيه وسلم ولاية القضاء فقد كان يقضي بنفسه بين المتخاصمين في المدينة، إلى جانب مهامه الأخرى.

وكان الرسول الكريم يقضي بكتاب الله واجتهاده، وبذلك أوصى وُلاته ورسله في فض المنازعات والقضاء بين الناس. وكان من بين أهم مبادئ القضاء التي أقرها الرسول مبدأ(البينة على من ادعى واليمين على من أنكر)، وكانت طرق الاثبات شهادة الشهود والبينة واليمين والكتابة والاقرار.

وبعد وفاة النبي الكريم أصبح تعيين القضاة من اختصاص خليفة المسلمين، فقد أسند أبو بكر القضاء لعمر بن الخطاب، وإذا كان القضاء في الأمصار أول الأمر مضاف إلى اختصاص الوالي حتى كانت خلافة عمر فجعله مستقلا عن نظر الوالي وعين له من ينفرد به.إلى أنه في فترات تالية أسند القضاء من جديد إلى

الولاة حتى عهد أبو جعفر المنصور أحد خلفاء الدولة العباسية أين منع الجمع بين ولاية الأمصار والقضاء دعما لاستقلالية القضاء.

أولا: القضاء في العصر الأموي: كان القاضي يجتهد في أحكامه إذ لم تكن بعد قد تبلورت إزاءه المذاهب الإسلامية، وكان القاضي يعتمد على الكتاب والسنة والاجماع والاجتهاد مما جعل الأحكام تختلف وقد تتناقض أحيانا مما يلجأ القاضي للاستعانة بالخليفة إذا التبس عليه الأمر.

- ظل القضاء مستقلا فلم يتأثر بسياسة الدولة، وكان حكم القاضي نافذا على الولاة وعُمال الخراج، وفي حالة تدخل الوالي في شؤون القضاء يعتزل القاضي مدافعا عن حرمة القضاء وكانت هذه الحالات نادرة الوقوع.

- ظهرت في العصر الأموي السجلات لتسجيل الأحكام وذلك حينما تولى قضاء مصر سليم بن عنتر في حكم معاوية فقضى بين جماعة في ميراث وبعد الحكم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم ثانية وكتب كتابا بقضائه واشهد عليه فكان ذلك أول تسجيل للقضاء.

- توسعت مسؤولية القضاء فصار يجمع مع الفصل بين الخصوم إفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، كالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى، والنظر في الوقف وتزويج الايامى عند فقد الأولياء، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب والتثبت من أحوالهم.

- **ثانيا: القضاء في العصر العباسي:** تطور نظام القضاء في العصر العباسي نتيجة تطور مظاهر الحياة العامة ومنها ازدهار المعارف الفقهية حيث شهد العصر العباسي نضجا في المذاهب الفقهية المختلفة، وظهرت القمم

الفقهيـــة للمـــذاهب كالشـــيعة الجعفريـــة وامـــامهم الصـــادق 148ه، والحنفيـــة وامامهم أبو حنيفـــة 150ه والمالكيـــة وامـــامهم مالـــك ســـنة179ه والشـــافعية وامامهم الشافعي سنة 204 ه، والحنابلة نســـبة لأحمـــد بـــن حنبـــل ســـنة 241ه، وغيرهم كثير.ونتيجة حرية الاجتهاد فقد انتج ذلـــك تعدديـــة قضـــائية وترســـانة من الأحكام سببت اختلاف احكام القضاء في ظل عـــدم الـــزام الخلافـــة للقضـــاة بمذهب معين. وفيما يروى أن المنصـــور عـــرض علـــى الامـــام مالـــك اتخـــاذ كتابه الموطأ أساسا يجتمع عليه المسلمون فـــي مجـــال أحكـــام الشـــريعة لكـــن الامام مالك رفض بسبب اعتماد الناس علـــى أحاديـــث وروايـــات مختلفـــة عـــن الصحابة وإن ردهم لكتابه فيه تشديد عليهم. وبنـــاء علـــى هـــذا صـــار القضـــاء متروكا للقضاة ولاجتهاداتهم فيه.

أنتجت التعددية المذهبية في الإســـلام علـــى عهـــد العباســـيين تعدديـــة فـــي التشريع القضائي، فقد كان هناك قضاة ذوو مرجعيـــة فقهيـــة شـــافعية وآخـــرون ذوو خلفية فقهية حنبلية أو مالكية أو حتى جعفرية بالنســـبة للشـــيعة، مـــا ســـمح بوجود ترسانة من الاحكام القضـــائية ذات مرونـــة وتيســـير للأمـــة، فقـــد كـــان يحق للمتاقضين اختيـــار القاضـــي ومنـــه المرجعيـــة الفقهيـــة التـــي يحتكمـــون إليها.

وتدعيما لمكانة القضاء استحدث العباســـيون منصـــب قاضـــي القضـــاة، الـــذي يتم تعيينه من الخليفة مباشرة وهو يقوم بتعـــين قضـــاة الأمصـــار وأول قاضـــي قضاة هو أبو يوسف يعقوب بن ابـــراهيم علـــى عهـــد الخليفـــة الهـــادي وأقـــره كذلك هارون الرشيد عليها.

وفي الأندلس كان قاضي القضاة فيه يُعرف بـ"قاضي الجماعة". ويذكر النُّبَاهي في 'المرقبة العليا' أن وظائف الولايات الرسمية بالأندلس "أولها القضاء، وأجله قضاء قاضي الجماعة .ويرجّح النباهي أن المقصود بـ"قاضي الجماعة" هو ما عُرف في المشرق بقاضي القضاة "وإضافة لفظ القضاء إلى الجماعة، جرى التزامه بالأندلس منذ سنين إلى هذا العهد، والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة. (الجزيرة مؤسسة القضاء الإسلامية كافحت الطغيان وألهمت الغرب أنظمة العدالة).

ثالثا: القضاء في عهد العثمانيين: مع قيام الدولة العثمانية أصبح للقضاء شأن مهم فيها، ذلك أن الدولة العثمانية قامت على أسس إسلامية، وأصبح للقضاة الذين عرفوا بفئة(العلماء) والذين كانت لهم مكانة مهمة في المجتمع، وقد شهد العهد العثماني تغييرا مهما في هذا الجهاز، ألا وهو فصل الإفتاء عن القضاء، واسندت مهمة اصدار الفتاوى إلى(المفتي)، الذي وجد إلى جانب القاضي. ومن جهة أخرى عمل العثمانيون على وضع تنظيم خاص لسلك القضاة فيما يخص درجاتهم وتعيينهم ومخصصاتهم وصلاحيتهم، ووضع على رأس التنظيم المفتي الأكبر (شيخ الإسلام) ذو المكانو المهمة في الدولة العثمانية، ولم يقتصر عمل القضاة في الدولة العثمانية على مذهب واحد، فقد وجد الى جانب قضاة المذهب الحنفي–وهو المذهب الرسمي للدولة العثمانية–قضاة المذاهب الشافعي والمالكي والحنبلي.